

قراءة القصيدة في ضوء مناهج النقد المعاصرة (الأسلوبية أمودجا)

Reading the poem in the light of contemporary criticism approaches (Stylistics as a model)

Dr. Salih Ahmad Ahmad Agha
Assistant Professor of Rehtoric & Criticism
University of IBB, Republic of Yaman

Email: salah.al.vt@iiu.edu.pk

Abstract:

The modern critical approaches have multiplied, and this in turn has impacted the processes of creative criticism. The poem has become clear to the recipient after literary critics placed multiple critical approaches in the hands of scholars, which were a summary of the accumulation of human knowledge over long ages. After the poem used to depend on the taste and direct impressions of the critic, traditional approaches appeared in a later stage: (historical - social - psychological). These approaches became available to the discerning critic, and then in a subsequent stage, modern critical approaches appeared: (stylistic - structuralist - deconstructive - semiotic). It became necessary for the critic to choose the critical approach that can shed light on the features of the poem and reveal many of its symbols, text, and secrets. This research article will discuss the readers of the poem in light of the stylistic approach.

Keywords: Modern Critical Approaches, Literary critics, Human Knowledge, stylistic.

تعريف الأسلوب لغة واصطلاحاً:

الأسلوب لغة:

عرف المرتضى الزبيدي الأسلوب بقوله: "الأسلوب هو السطر من النخيل. و(الطريق) يأخذ فيه. وكل طريق ممتد فهو أسلوب. والأسلوب: الوجه والمذهب. يقال: هم في أسلوب سوء. ويجمع على أساليب. وقد سلك أسلوبه: طريقته. وكلامه على أساليب حسنة"¹. ويلاحظ في التعريف اللغوي أنه يذكر الأساليب المختلفة في الكلام وينص عليها صراحة، وأن المرء قد يتميز بكلامه إذا نحا طريقاً معيناً في القول، كما أورد قول العرب للسطر من النخيل (الأسلوب)، ولعل ذلك يعود إلى تشكيته المميزة التي تأخذ بالعين، كما ذكر الطريق الممتد الطويل التي تقل التعرجات فيه، ويلاحظ فيه نوع من اللمسة الجمالية.

كما يورد صاحب تاج العروس نفسه أيضاً تعريفاً آخر يقرب الأسلوب - كثيراً - من تعريفه المعمول عليه في الدرس الحديث؛ فيقول: "والأسلوب، بالضم: الفن. يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانين منه"². فالأسلوب فن مميز من القول، وكأن لكل شخص أسلوبه، أو لكل جماعة من الناس المتخصصين في فن من الفنون أسلوبهم أو أساليبهم.

ومن المعاني الطريفة التي أوردتها صاحب كتاب تاج العروس، أن الأسلوب يقصد به عنق الأسد خاصة: "والأسلوب: (عنق الأسد)؛ لأنها لا تُثنى"³؛ معللاً بذلك بأن أعناقها لا تثنى، ولا يمكن ليها، وهو يتوافق مع الطريق الطويل الممتد من حيث الاستقامة وعدم وجود المنعرجات والالتواءات، والطريف أن من معاني (العاطفة) موضوع البحث: (اللي والثني) كما مر، وهي بذلك تتلاقى مع تعريف الأسلوب في تراثنا اللغوي وإن كان التلاقي بطريقة ضدية.

الأسلوب اصطلاحاً:

وكثرة تعريفات الأسلوب هي إثراء له، علاوة على أهميته الشديدة، حتى أن كل عالم أو باحث يحاول أن يضع له تعريفاً، حيث تناوله بالدراسة الكثير من العلماء والباحثين: قديماً وحديثاً، حتى صار له "مدلولات واسعة لا تكاد تنحصر"⁴، بحسب اختلاف المدارس والأشخاص.

ومن أوائل التعريفات الناضجة للأسلوب ما نجده عند الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي أورد له تعريفاً في دلائل الإعجاز قائلاً: "الأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه"⁵، فهذا التعريف رغم قدمه الممتد إلى القرن الخامس الهجري، وقصره إذ يتألف من خمس كلمات لا غير، إلا أنه يكاد يتطابق مع ما وردنا اليوم من المدارس الغربية، مع العلم أن هذه المدارس قد استفادت من الموروث الطويل الذي لم يكن موجوداً في زمن عبد القاهر الجرجاني، الذي كان كل همه منصباً على نظرية النظم التي أخرجها إلى الوجود كاملة، ورغم عدم اعتماده على مدارس لغوية كما هو الحال عند نقاد اليوم، إلا أنه جاء بتعريفات لسانية عميقة قلّ أن نجد مثلها في ذلك العصر عند غير المسلمين.

ومن التعريفات المهمة لعلم الأسلوب عند الغرب، التعريف الذي أورده المفكر الفرنسي بوفون حيث يقول: إن "الأسلوب هو الرجل نفسه"⁶، فالأسلوب هو الذي يميز شخصية عن أخرى، وكل إنسان في الوجود له أسلوبه الخاص به والذي يميزه عن الآخرين ويتميز به؛ لأن "اللغة بناء مفروض على الأديب من الخارج والأسلوب مجموعة من الإمكانيات تحققها اللغة ويستغل أكبر قدر منها الكاتب الناجح أو صانع الجمال الباهر الذي لا يهتمه تأدية المعنى وحسب بل يبغى إيصال المعنى بأوضح السبل وأحسنها وأجملها، وإذا لم يتحقق هذا الأمر فشل الكاتب وانعدم معه الأسلوب"⁷، فالأسلوب يتحقق بمقدرة الكاتب نفسه على الإبداع، بالإضافة إلى الإمكانيات التي توفرها اللغة المستعملة.

وهذه الإمكانيات والمقدرات الأسلوبية هي التي تميز كاتباً عن كاتب، ومن خلالها يتفاوت الكتاب والأدباء في كتاباتهم وإبداعاتهم، فيبدع أديب ما، ويبرع في أدبه، إذ أن اللغة يشترك بها جميع المتكلمين بها من حيث

الإخبار والفهم، "أما الأسلوب فهو الإنسان عينه، لذلك تعذر انتزاعه أو تحويله أو سلخه"⁸، وكل إنسان له أسلوبه الخاص به، ويبرز هذا الأسلوب عند المبدعين بشكل أكبر وأكثر خصوصية، ومرد ذلك إلى الأدب نفسه الذي يميز كل مبدع بميزات خاصة تبرز في أسلوبه؛ ف"اللغة تعبر والأسلوب يبرز"⁹، لكون اللغة وسيلة تواصل للجميع، والإبداع الأدبي خاص بالمبدع وحده، ولا يمتلك الموهبة الإبداعية كل الناس؛ " ويتخذ الباحث الأسلوبية لدراسة ذلك الخطاب الأدبي الجمالي التأثيري.

ويرى الدكتور صلاح فضل أن أشهر تعريف للأسلوب متداول بين الباحثين بأنه "محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل"¹⁰، وهذه الاختيارات أو الإمكانيات التي يتميز بها أدب ما هي محصلة علم الأسلوب، والتي تأتي كمحصلة لـ"تطابق الأسلوب وصاحبه فكراً وشخصية"¹¹، وذلك لأن الأسلوب هو: "اختيار واع يسلمه المؤلف على ما توفره اللغة من سعة وطاقت"¹²؛ والأسلوبية هي: "البحث عن الأسس الموضوعية لعلم الأسلوب"¹³.

كما يذكر الدكتور سعد مصلوح اتفاق مدرستي بالي وجاكسون على تعريف موحد للأسلوب: "بأنه الصيغة المميزة للنص..."¹⁴؛ فكل نص له صيغة تميزه عن غيره من النصوص الأدبية الأخرى، فيدل هذا الأسلوب على صاحبه دون سواه، فالكاتب يتميّز بنصه الأدبي، والنص الأدبي يدل على صاحبه ومن أشهر التعريفات لعلم الأسلوب الحديث تعريف الفرنسي شارل بالي الذي نشأ على يده علم الأسلوب: (1865 – 1947م)، وقد عرف شارل بالي علم أسلوب التعبير بقوله: "هو العلم الذي يدرس وقائع التعبير اللغوي من ناحية محتواها العاطفي؛ أي التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة، وواقع اللغة عبر هذه الحساسية"¹⁵، فهو علم مخصص لدراسة اللغة: لغة الأدب، لغة العواطف، لغة التعبير والإيصال.

فبالأسلوبية والعاطفة تجمع بينهما روابط وثيقة من وجهة نظر بالي. "وقد ركز بالي -إذن- على الطابع العاطفي للغة وارتباطه بفكرتي القيمة والتوصيل، فكان يرى أن الاحتكاك بالحياة الواقعية يجعل الأفكار التي تبدو موضوعية في الظاهر مفعمة بالتيار العاطفي"¹⁶، وهذا يعود إلى الإمكانيات التعبيرية التي بإمكان لغة ما توفيرها؛ ف"علم الأسلوب يدرس الإمكانيات التعبيرية للغة، أي الوسائل التي يملكها الجهاز اللغوي نفسه لأداء معان تتجاوز الأغراض الأولية للكلام"¹⁷، وهي لغة الأدباء والشعراء.

ويستخلص من تعريف بالي "أن مفهوم الأسلوب عنده يتمثل في مجموعة من عناصر اللغة المؤثرة عاطفياً على المستمع والقارئ، فنقطة التقاء العاطفة والأسلوبية تتمثل في الأثر الذي تحدثه اللغة عند المتلقي (المستقبل)، كما أن هذا الأثر يمثل - كذلك - نقطة التقاء عند الأديب نفسه (المرسل).

الأسلوبية في التراث الأدبي والنقدي عند العرب: (علم الأسلوب في الموروث العربي):

يزخر تراثنا الأدبي بالكثير من الآراء في كثير من العلوم والنظريات الموجودة اليوم، ومنها علم الأسلوب، ولو نقب الباحثون عن هذا الموروث لوجدوا كثيرا من الإشارات إلى علم الأسلوب، ومن هذه الإشارات إلى علم الأسلوب ما نجده عند ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن، حيث ينص ابن قتيبة على فضل أسلوب القرآن الكريم، ولا يعرف ذلك الفضل والفرق الشاسع إلا من خبر أساليب العرب، يقول ابن قتيبة: " وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات"¹⁸.

فهذا رأي يعود إلى القرن الثالث الهجري، وقد تحدث كثير من العلماء المسلمين في الأساليب وتميزها وتفاوتها انطلاقا من الدراسات حول القرآن الكريم المعجز، وكانت محاولة بحثهم عن أسباب إعجازه هي دافعهم الرئيسي، فنظروا وكتبوا الكثير من الدراسات والبحوث التي تتلاقى كثيرا مع ما كتب في علم الأسلوب. وهذا الإمام الخطابي يتحدث في القرن الرابع الهجري عن الأساليب بشكل صريح وواضح، متطرقا إلى التفاوت الكبير بين نص وآخر، وبين شاعر وشاعر، وما ذاك إلا لكون أحدهم قد أحسن أسلوب الكلام أكثر من الآخر، فجاء نصه أبداع وأبلغ، "وها هنا وجه آخر يدخل في هذا الباب، وليس بمحض المعارضة، ولكنه نوع من الموازنة بين المعارضة والمقابلة، وهو أن يجري أحد الشعاعين في أسلوب من أساليب الكلام وواد من أوديته، فيكون أحدهما أبلغ في وصف ما كان من باله من الآخر في نعت ما هو بإزائه"¹⁹. وانطلق الخطابي في توصيفه للأساليب والفروق الكبيرة بينها من دراسته للقرآن الكريم، ومحاولة بيان الوجوه التي صعب على الشعراء فيها مجارة النص القرآني ذي الأسلوب المعجز.

وهذا الإمام عبد القاهر الجرجاني من علماء القرن الخامس الهجري، يتحدث عن الأسلوب في ضوء نظرية النظم باستفاضة، "ولعل عبد القاهر يعد رائدهم في هذا المجال؛ حيث أقام نظريته في النظم على عدد من العناصر هي: المعاني النحوية والاختيار والتأليف"²⁰، والتأليف هو التركيب عينه، وهاتان العمليتان: الاختيار والتركيب "هما اللتان تتكفلان بإنتاج الدلالة الشعرية"²¹، ونظرية الإمام عبد القاهر الجرجاني يجعلها العلماء أعظم ما توصل إليه العرب في هذا المجال²²، ففيها الكثير مما يظن اللسانيون المحدثون أنهم قد ابتدعوه ابتداء. ومن أبرز ما ورد في نظريته "أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"²³، فهذا النظم الذي يؤصل له عبد القاهر الجرجاني هو الذي يجعل أسلوبا يتميز على أسلوب آخر، إلى الحد الذي يرقى إلى الإعجاز، "من أين كان نظم أشرف من نظم؟ وبم

عظم التفاوت، واشتد التباين، وترقى الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يقهر أعناق الجبارة؟²⁴. فالمعول عليه في التباين هو اختلاف النظم، ونظم القرآن الكريم اختلف عن نظم البشر، إذ أنهم لا يستطيعون أن ينظموا مثله وإن حاولوا؛ لذلك كان نظمه معجزا بنظمه وأسلوبه.

وكما أن كل شخص له أسلوبه الذي يميزه عن سواه، فله - كذلك - نظمه المعايير للآخرين، وهل النظم إلا الأسلوب، وهل الأسلوب إلا الطريقة في النظم كما يذكر الجرجاني ذلك الأمر بشكل صريح: "وأمر النظم في أنه ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم"²⁵. كما ينص في موضع آخر من الدلائل على: "أن ليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم"²⁶، وهل الفرق بين الوجوه، وتوخي هذه المعاني إلا مراعاة علم الأسلوب كما يرى الحداثيون؛ "فهذه المعاني هي التي يترابط بها الكلام، ويتعلق بعضها ببعض تعلقا خاصا يحدث الأثر البلاغي المطلوب في رأي عبد القاهر. وفي ذلك يدخل أيضا ترتيب الكلمات وفقا لترتيب المعاني الأصلية والمعاني الإضافية في النفس"²⁷.

وينص عبد القاهر في دلائله على أن المراد من تأليفه الكتاب هو "بيان العلل التي لها وجب أن يكون لنظم مزية على نظم، وأن يعظم أمر التفاضل فيه ويتناهى إلى الغايات البعيدة"²⁸، فهذا هو الأسلوب كما يراه عبد القاهر، "وبذلك يعد الجرجاني مؤسس علم الأسلوب العربي"²⁹، وهذا هو الإمام عبد القاهر الذي خطا بالدرس العربي خطوات متقدمة في التعليل والتأصيل، وكان يهدف من "من وراء ذلك إلى وضع تفسير علمي لمعنى إحكام الأسلوب وقوة بنائه واضعا في اعتباره الفن القوي للبلاغة والفنون الجميلة الأخرى، مثل النقش والنحت والنسيج والتصوير"³⁰، ولم يتلقف كلامه العلماء والباحثون الذين جاؤوا بعده كما أراد هو، ولم يحسن قراءة نظيرته الكثيرون حتى جاءنا العلم الغربي؛ فذهبنا نبحث في تراثنا عما يسنده.

فهذا التنظير الذي ساقه ابن خلدون يتماهى كثيرا مع ما أورده نقاد الغرب ومنظرو الأسلوبية عندهم، حيث أن كل شخص يتميز نصه الأدبي بأساليب معينة من التراكيب والبناء مثلما هو الحال بكل فن من فنون الكلام.

العلاقة بين علم البلاغة والأسلوبية:

العلاقة بين البلاغة والأسلوبية تكاد تكون علاقة تكاملية، ولذلك تعد الأسلوبية المعاصرة من وجهات نظر عدة مكملية للبلاغة الكلاسيكية³¹. ويذكر الباحثون في الأسلوبية أن علم الأسلوب هو الوريث الشرعي لعلم البلاغة، "إذ لا ينفك الواقع اللساني يقر بأن الأسلوبية إنما هي وريث البلاغة، معنى ذلك أنها بديل في

عصر البدائل³²، فالأسلوبية - بذلك - خرجت من عباءة البلاغة، والعلاقة بينهما "هي: الترادف، فالبلاغة هي النظم، والنظم هو الأسلوب"³³.

كما أن الدراسات في كليهما تكاد تكون متشابهة؛ فالهدف النهائي لعلم الأسلوب - كما يراه كثير من علماء الأسلوب - هو أن يقدم صورة شاملة لأنواع المفردات والتراكيب وما يختص به كل منها من دلالات، وهذا نفسه هو ما يصفه علم البلاغة³⁴، علاوة على الإبلاغ في أكمل الصور وأتمها في كلا العلمين؛ "فالأسلوبية - شأنها شأن البلاغة في التفكير الإنساني عامة - لا تستقيم حدودها ما لم تسلم بمصادرة جذرية ألا وهي سعي الحيوان الناطق إلى إدراك التبليغ الأكمل..³⁵، والإبلاغ هو الهدف من اللغة عامة، لكن هذا الإبلاغ يكون أبلغ من خلال هذين العلمين: (البلاغة والأسلوبية)، وذا وقع أبين على النفس البشرية المتذوقة للأدب بشكل خاص.

وهناك بعض الفروق بين علمي البلاغة والأسلوبية، وهي فروق لا تؤثر على بقاء الدراسات الأسلوبية تحت جناح علم البلاغة، لكون البلاغة هي الحاضنة الشرعية لعلم الأسلوب، وإن تفوقت الدراسات الأسلوبية في بعض الأطروحات، وكانت أوسع مجالاً في تناولها للنص الأدبي؛ وذلك بسبب معالجتها لقضايا ليست من اهتمامات الدرس البلاغي، فاليس من السهل وربما من غير المجدي نهائياً أيضاً فصل البلاغة عن الأسلوبية والبراجماتية فصلاً دقيقاً³⁶، لكن كلا العلمين يبحثان في أسباب تميز قول على قول ونص على نص ونظم على نظم، ومن أبرز الفروق بين العلمين ما يأتي:

1- علم البلاغة موجود منذ القدم، في حين وجدت الدراسات الأسلوبية بشكلها المتعارف عليه في العصر الحديث، فالعلم البلاغة علم لغوي قديم، وعلم الأسلوب علم لغوي حديث³⁷، وهو فرق لا يؤثر في عملية تكاملهما أثناء دراسة النص الأدبي.

2- علم البلاغة يحتكم إلى قوانين دقيقة لا يمكن تجاوزها، أما الدراسات الأسلوبية فتهم بوصف ظواهر معينة في النص الأدبي؛ فالعلم البلاغة علم معياري على حين أن علم الأسلوب علم وصفي³⁸، وهذا فرق يدعوها للتكامل في سبيل خدمة النص الأدبي، بحيث تكون الدراسات التي تجري على النصوص الأدبية وصفية معيارية، تصف الظاهرة الأسلوبية مستندة في ذلك إلى معايير علم البلاغة والعلوم الأخرى.

3- كما أن هناك فرقا ثالثا يتعلق بالكم والشمول؛ إذ أن علم الأسلوب قد اتسع "اتساعاً كبيراً بالقياس إلى علم البلاغة. فعلم الأسلوب يدرس الظواهر اللغوية جميعها من أدنى مستوياتها - الصوت المجرد -

إلى أعلاها وهو المعنى. ثم هو يدرسها في حالة البساطة وفي حالة التركيب. فمن الناحية الصوتية يدرس الجملة والفقرة كما يدرس الكلمة المفردة، ومن الناحية المعنوية يدرس المعنى الكلي أو الغرض الذي تدل عليه القطعة أو تشير عليه، كما يدرس دلالة الكلمات والجملة³⁹، وبهذا تكون الدراسات الأسلوبية أكبر من نظيراتها البلاغية وأوسع حجما منها.

مستويات التحليل الأسلوبي:

مثلا تعددت تعريفات الأسلوب، وتعددت مدارسه: حيث "يتوزع مباحث الأسلوبيات اللسانية المعاصرة اتجاهان أو مدرستان متنافستان، هما بحسب تصنيف بيير جيرو: مدرسة الأسلوبيات التقليدية التي وضع أصولها بالي، ومدرسة الأسلوبيات الحديثة التي اشتقها جاكسون من الاتجاه البنيوي لمدرسة براغ..."⁴⁰؛ فقد تعددت كذلك المباحث التحليلية الخاصة به، والمستويات التي يتناولها الباحث في حقل الدراسات الأسلوبية، ولكن تبقى هناك بعض المستويات التي تكاد المدارس المختلفة تتفق عليها، حيث يخضع التحليل الأسلوبي لبواعث صوتية وصرفية ودلالية⁴¹ يجب أن يتناولها الباحث الأسلوبي في دراسته. فالصوت والمفردة والتركيب هي أهم الملامح التي يتناولها البحث الأسلوبي.

فالبحوث الأسلوبية تهتم بالمستوى الذي يتعلق بالصوت، وذلك الذي يتعلق بالمفردة، وأخيرا ما يتعلق بالتركيب، حيث يركز التحليل الأسلوبي "بوجه خاص على (أشكال التعبير) في اللغة، أي: الملامح الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية للمنطوقات"⁴². انطلاقا من ثلاثة عناصر يوليها الباحث أهمية كبيرة أثناء عملية التحليل الأسلوبي: (العنصر اللغوي، العنصر النفعي، العنصر الجمالي الأدبي)⁴³.

فبداية البحث الأسلوبي تكمن في الرمز اللغوي، حيث "يعتمد التحليل الأسلوبي الموجه إلى تقويم الرمز اللغوي وإبراز دلالاته على فكرة أساسية"⁴⁴، وهذا الرمز قد يكون الصوت، وقد يكون اللفظة المفردة، علاوة على تركيب الألفاظ بعضها ببعض التي هي عبارة عن رموز.

ويسرد الدكتور سعد مصلوح مجموعة من المتغيرات الأسلوبية التي يرى "أنها من أكثر المتغيرات سيروية في البحث الأسلوبي"⁴⁵. وقد وضعها تحت ستة أنواع من المتغيرات، هي: (المتغيرات الشكلية، المتغيرات الصوتية، المتغيرات الصرفية، المتغيرات التركيبية، المتغيرات الدلالية، من متغيرات ما فوق الجملة)⁴⁶، وجميع هذه المتغيرات لا تخرج عن المستويات الثلاثة: (الصوتية - اللفظية - التركيبية).

والباحث في مجال الأسلوبيات يقوم بتشخيص أسلوبي للنص الأدبي الذي يريد دراسته، والتشخيص الأسلوبي: نشاط تحليلي يقوم به الباحث، ويهدف إلى الكشف عن الهوية الأسلوبية للنص، ومادته

التصورات والإجراءات المنهجية⁴⁷. وليس هناك أفضل من دراسة القصيدة كوحدة متماسكة لمعرفة الجوانب الأسلوبية لهذا التشخيص الذي يود الباحث الأسلوبى القيام به؛ "فالتحليل الأسلوبى يجري على قيم بنية متزامنة، وليست هناك أية وحدة عضوية أشد اكتمالا من القصيدة في تنفيذها اللغوي، باعتبارها الإمكانية المركزة القصوى للدلالة اللغوية الشعرية"⁴⁸، ومن خلال دراسة القصيدة أسلوبيا، وتحليل رموزها وأبنيها يتوصل الباحث إلى نتائج أسلوبية أفضل من الدراسات المجتزأة، باعتبار القصيدة نصا أدبيا يناقش فكرة واحدة وتحت عاطفة وحيدة ومحددة في الغالب، وهو الأمر الذي اعتمده هذا البحث.

القصيدة إذن هي الجانب الأمثل للدراسات الأسلوبية، ومن خلال القصيدة المكتملة يبحث الدارس الأسلوبى عن علاقة الدال بالمدلول بحثا أسلوبيا يصل من خلاله إلى نتائج كلية لأسلوب الأديب والشاعر، فالهدف الحقيقي لعلم الأسلوب إذن هو البحث عن تلك العلاقات المتبادلة بين الدوال والمدلولات عبر التحليل الدقيق للصلة بين جميع العناصر الدالة وجميع العناصر المدلولة؛ بحثا يتوخى تكاملها النهائي، ويقتصر عند الممارسة العملية على أهمها وأخطرها، وهنا تبرز - في تقدير الباحث - المشكلة الرئيسية في علم الأسلوب؛ وهي التماس بين هذين الجانبين: الجانب الطبيعى المتمثل في الدوال، والجانب المعنوي أو الروحي المتمثل في المدلولات"⁴⁹، ومن خلال دراسة علاقتهما في القصيدة يصل الباحث الأسلوبى إلى النتائج الأسلوبية المبينة لأسلوب ما، علاوة على معرفة أسلوب الأديب نفسه، وتميز أسلوبه باختيارات معينة مثلا، وهو - غالبا - يكون الهدف الذي رسمه، أو تبادر إلى ذهنه أثناء شروعه في دراسته.

وعلى ضوء وحدة القصيدة "يرى (داماسو ألونسو) أن لغة الشعر الأصيل ليست فيها ذرة من الشوائب؛ فكل شكل إنما هو شكل معنى، أو هو معنى مشكّل، وحتى اللعب بالموسيقى والإيقاع والجناس والوقفات ونظام الكلمات؛ كل هذا إنما هو طريقة تنظيم النشاط الخلاق في لغة الشعر، فهو مثير للتوتر الداخلى وتعبير عنه في الوقت نفسه، ولا بد من اعتباره عناصر في الهيكل الشامل قام الشاعر بتناولها وتوظيفها بلذة جمالية؛ ففي لغة الإبداع الشعري ليست هناك زينة ولا إضافات، كل شيء إنما هو تعبير عن الشعور وحركة النفس منقولة إلى اللغة طبقا لقواعد التنظيم الجمالي"⁵⁰، وكل صوت أو كلمة أو جملة إنما جيء به من أجل اكتمال بناء النص الأدبي كوحدة متكاملة لا يتخلله انتهاك أو عشوائية في البناء.

ووحدة القصيدة هي الوحدة التي يستطيع الباحث الانطلاق منها للدخول إلى عالم الأديب من خلال استكشاف مستويات التحليل الأسلوبى، الجدير بالذكر "أن المدارس اللسانية تتفاوت تفاوتا كبيرا في مدى ما توليه من عناية لدراسة ظاهرة الأسلوب، وفي تحديد موضوع المكون الأسلوبى من ثنائيات كثيرة

اشتهرت بين النقاد اللسانيين...⁵¹، وعلى ذلك فإن الدراسات الأسلوبية تختلف من باحث لآخر، ويمثل منهج سبستر أهم اتجاهات التحليل الأسلوبي الذي يعتمد على التذوق الشخصي؛ لكنه يحرص على أن يعكس المثريات التي تصل من النص إلى القارئ، ويحاول أن يحدد نظام التحليل على هذا الأساس⁵². وذلك بحسب ما يوليه الباحث من أهمية لجانب ما، إذ أن النص الأدبي عميق ومتشعب، والكشف عن أغوار النص، هي مهمة المحلل الأسلوبي الذي سيكون ذوقه الشخصي عاملا في تحديد بعض البنى الأسلوبية المميزة للنص الأدبي، من خلال التحليل الأسلوبي للمستويات:

1- المستوى الصوتي: حيث يبدأ الباحث الأسلوبي دراسته بتحليل أقل وحدة في القصيدة أو المقالة النثرية؛ "فقبل دراسة الدلالة المعنوية للكلمة يدرس علم الأسلوب تأثيرها الصوتي الذي يرجع إلى طولها ووزنها وطبيعة حروفها... إلخ. ثم هناك ظاهرة الإيقاع التي تسيطر على القطعة كلها، بل تطبع شعر الشاعر أو كتابة الكاتب أو خطبة الخطيب بطابع خاص"⁵³. فالصوت له مدلولات واضحة، وعلى الباحث الأسلوبي الكشف عن تواجدتها؛ و"يرى بالي أن المادة الصوتية تكمن فيها إمكانيات تعبيرية هائلة؛ فالأصوات وتوافقاتها، وألعاب النغم والإيقاع، والكثافة والاستمرار، والتكرار، والفواصل الصامتة، كل هذا يتضمن بمادته طاقة تعبيرية فذة"⁵⁴، والمحلل الأسلوبي عليه دراستها، أو دراسة الأبرز منها، والخروج بنتائج مثمرة عن أسلوب كاتبها.

2- المستوى اللفظي: تعد اللفظة المفردة هي الوحدة الثانية في مجال التحليل الأسلوبي، وتتضمن هذه اللفظة الكثير من الدلالات الأسلوبية؛ ف"فيما يتعلق بدور المفردات في تحديد العناصر الأسلوبية فله أهمية كبيرة في الكشف عن معايير اللغة وخواصها، والتمييز بين العناصر الذهنية والعاطفية في التعبير"⁵⁵، ويتم من خلالها تحديد المعجم اللفظي للكاتب أو الأديب. "وتعد المفردات الجبهة العريضة للبحوث الأسلوبية التعبيرية عند بالي ومدرسته؛ وهي التي حظيت بأوفى قدر من اهتمامهم"⁵⁶، وعليها تبنى الكثير من الدراسات الأسلوبية.

المستوى التركيبي: تركيب الجملة هو العنصر الثالث للمحلل الأسلوبي، ويتضمن هذا التركيب الجوانب النحوية والبلاغية الخاصة بالجملة، ومهمة المحلل الأسلوبي تكمن في الكشف عن "الأبنية الأسلوبية والبلاغية التي تحمل عند وصفها وإدراكها دائما معنى نسبيا استنادا إلى ما يصلح في موقف محدد بالنسبة لمتكلم أو سامع محدد، وبالنسبة لنمط نص محدد... إلخ، بوصفه معيارا عرضيا (مرتبطا بالقاعدة) أو بوصفه معيارا محتملا

(وهذه هي الحال غالباً)⁵⁷، ويستطيع الباحث من خلال هذا المستوى الدخول إلى عالم الأديب، وتحديد الأساليب التركيبية الأكثر شيوعاً عنده والتي يجنح إليها -عادة- ويوظفها في إنتاجه الأدبي.

الهوامش

- 1 - تاج العروس من جواهر القاموس، محمد المرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: جماعة من المختصين، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، د.ط، أعوام النشر: (1385 - 1422هـ) - (1965 - 2001م)، مادة (سلب)، ج3-ص71.
- 2 - تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (سلب)، ج1-ص73.
- 3 - المرجع نفسه، مادة (سلب)، ج3-ص71.
- 4 - علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م، ص10.
- 5 - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1992م، ج1-ص467 و468.
- 6 - علم الأسلوب: مدخل ومبادئ، شكري عياد، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2013م، ص19.
- 7 - الألسنية العربية، ريمون طحال، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1972م، ص116-117.
- 8 - الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، د.ك، الطبعة الثالثة، د.ت، ص67. وينظر مصدره الأجنبي.
- 9 - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص111 عن ريفاتير.
- 10 - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص116.
- 11 - الأسلوبية والأسلوب، ص74-75.
- 12 - المرجع نفسه، ص74-75.
- 13 - المرجع نفسه، ص34. وينظر مصدره الأجنبي.
- 14 - في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية، د. سعد مصلوح، النادي الأدبي الثقافي، جدة، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م، ص23.
- 15 - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص18.
- 16 - المرجع نفسه، ص18.
- 17 - علم الأسلوب، شكري عياد، ص116.
- 18 - تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ص17.
- 19 - بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب السبتي المعروف بالخطابي، تحقيق: محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976م، ص65.
- 20 - الاختيار عند الجرجاني في دلائل الإعجاز، صالح أحمد أحمد آغا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة إب، 2013م، ص16.
- 21 - قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، القاهرة، الطبعة الأولى، د.ت، ص10.
- 22 - ينظر: فصول في اللغة والنقد، د. نعمة رحيم العزاوي، المكتبة العصرية، بغداد، الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م، ص175.
- 23 - دلائل الإعجاز، ج1-ص55.
- 24 - المرجع نفسه، ج1-ص109.
- 25 - المرجع نفسه، ج1-ص454.
- 26 - المرجع نفسه، ج1-ص525.
- 27 - بلاغة العطف في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية، د. عفت الشرفاوي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1981م، ص17.

- 28 - دلائل الإعجاز، ج 1-ص524.
- 29 - الاختيار عند الجرجاني في دلائل الإعجاز، ص16.
- 30 - دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، د. أحمد درويش، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت، ص108.
- 31 - علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات، مدخل متداخل الاختصاصات، تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق: د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م، ص182. ويضيف الكاتب بعد الكلام عن البلاغة الكلاسيكية "التي لم تعد موجودة فعليا كعلم مستقل منذ نهاية القرن التاسع عشر. وعلى العكس من ذلك كانت للبلاغة في القدم وفي العصر الوسيط والعصر الحديث الكلاسيكي وظيفة مهمة إلى جانب النحو والشعر والجدل، فبينما كان النحو يعد فن الكلام الصحيح كانت البلاغة تعد فن الاستعمال الجيد، وهكذا فالبلاغة لها كما يبين الاسم أهمية خاصة"، نفس الصفحة 182. ونظرا لكون هذا الكلام لا ينطبق على بلاغتنا العربية الثرية؛ فقد أورد البحث إتمام الكلام في الهامش.
- 32 - الأسلوبية والأسلوب، ص42.
- 33 - علم الأسلوب في الدراسات الأدبية والنقدية، ص104.
- 34 - علم الأسلوب، شكري عياد، ص39.
- 35 - الأسلوبية والأسلوب، ص37.
- 36 - علم النص، ص183.
- 37 - علم الأسلوب، شكري عياد، ص40.
- 38 - المرجع نفسه، ص40-41.
- 39 - علم الأسلوب، شكري عياد، ص42-43.
- 40 - في النص الأدبي، ص23.
- 41 - ينظر في تفصيل ذلك: علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص161.
- 42 - علم النص، ص168.
- 43 - ينظر: علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص132.
- 44 - المرجع نفسه، ص161.
- 45 - في النص الأدبي، ص34.
- 46 - ينظر: المرجع نفسه، ص34 وما بعدها.
- 47 - ينظر: في النص الأدبي، ص53.
- 48 - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص85.
- 49 - المرجع نفسه، ص141.
- 50 - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص79.
- 51 - في النص الأدبي، ص19.
- 52 - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص59.
- 53 - علم الأسلوب، شكري عياد، ص42.
- 54 - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص27.
- 55 - المرجع نفسه، ص29.
- 56 - المرجع نفسه، ص30.
- 57 - علم النص، ص191.